المرأة الحديثة والاجتماع فى الشرق والغرب

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعه

قال أحد مشاهير الكتاب المعتدلين المحافظين [١] ممن لا يمكن أن يعزى إليهم الخوف أو القلق أو النقمة على شيء لتمتعه بكل الثمرات والخيرات التى أنتجها العصر الحديث فى صحيفة تعد من أمهات الصحف المحافظة :

" الانزعاج والقلق حالة نفسية تبدو فى ظروف خاصة بين الأفراد والجماعات على حد سواء ، وقد تتولد من اسباب معروفة ملموسة كما تنشأ من أسباب معنوية يتعسر تحليلها . ولعل أصدق ما توصف به حالتنا فى هذه الأيام أنها حالة قلق وانزعاج تسيطر على نفوسنا افرادا وجماعات ، تبدو مظاهر هذا الانزعاج وذلك القلق فى حياتنا الخاصة وفى حياتنا العامة ، وأثر هذه فى تلك جلى واضح كما أنها تبدو فى شؤوننا الاقتصادية والسياسية ... ... لا يستطيع الفرد أن يبنى حسابه على أساس ثابت معروف وهو فى كلا الحالين يتخبط فى الظلام. والضرائب تلقى معارضة عنيفة فى مجلس النواب وقد يكون شأن الأيلولة والمهن الحرة والدفاع شأن الأرباح الاستثنائية ، وكل هذا مصدر قلق وانزعاج. وفى الحالة السياسية مثل هذا القلق والانزعاج وأسبابها التعب والملل وحرب الأعصاب ، نمسى ونصبح بين أنباء القتال والمعارك فى الشرق والغرب . فى كل مكان روح القلق والانزعاج الخ ... "

هذا الروح روح القلق والانزعاج ليس مصدره الحرب وحدها ولا الأزمة المالية ولا عدم الثقة ولا الخوف من الغداة فى العشية أو من العشية فى الغداة . ولكنه ملازم لروح العصر الحديث ، فلو لم تكن الحرب لكانت مخاوف أخرى للأفراد والجماعات ، غير أن الحرب طعم أو لقاح جديد أضيف إلى شجرة الحياة فزادها مرارة واهتزازا تحت العاصفة. وإن الطبيعة البشرية قادرة على التحمل والتضحية وتحدير الذات وخداع النفس بما يفوق التصديق . فإن الانسان المتحضر — حتى فى البلاد الشرقية — يمكنه أن يخفى حقيقة حال شعوره ، حتى لا يبين منها شيء فقد أتقن كل ضروب الرياء والنفاق الاجتماعى بما تلقاه بنفسه وبما ورثه وبما ركب فى فطرته بدون وراثة وبما أرغم عليه لمجاراة المجتمع تعلقا بحاجاته ورغباته وأهوائه . وأن تصوير ذلك وتحليله وتعليله يقتضى وضع الكتب الضخمة وقد وضعت هذه الكتب فعلا ولم تفد إلا فى فتح أبواب جديدة فى النفاق والرياء واتخاذ وسائل حديثة لاتقاء الفضيحة ، والشرق والغرب فى ذلك سيان لا يفترق أحدهما عن الآخر .

---

[١] اعنى به مورو الكاتب الاجتماعى والمؤرخ الشهير فى مجلة « العصر الجديد »

ومن المسائل التى تصور حقيقة الحال ووصف الوسائل التى يتخذها المجتمع للتغمية والتعمية وينساق منها الى ما نسميه نحن أسباب أو سبيل الفساد، ما اخترعته الثورة الفرنسية ونقلته عنها أمم العالم وهو مايسمى بالولائم والحفلات والاعياد. وقد جنت الثورة الفرنسوية بهذا النوع من الحياة الاجتماعية ، لأنها صبغته بصبغة رسمية وأشركت فيه رجال الحكومة فجعلت بذلك غيرها من الحكومات فى حل من تقليدها حتى صارت الحفلات والأعياد والذكريات تقاليد قومية وشعبية وكوارث رسمية . فكان لهم عيد الحرية أو سقوط سجن الباستيل فى ١٤ يوليه ، وعيد الكائن الأعلى (ابتكره روبزبير) وقد اتخذتها الثورة لتنسى الشعب حلاوة أعياد الملوك الذين كان عهدهم فى الفترة السابقة للثورة براقا خلابا، فأمعنت فرنسا فى فتح باب الشهوات على مصراعيه، واطلاق الغرائز البشرية بعضها على بعض بلاشرط ولا قيد، بحجة أن هذا فرع من الحرية والترفيه عن الشعب وتسجيل الامجاد، ووافق ذلك شهوات رجال الحكومات ونسائهم الشرعيات والمحظيات فكانوا هم أسبق الناس الى تشريع القوانين الفاتحة لأبواب هذه الشهوات؛ ثم سرت العادة بالتقليد فصار لكل رجل وامرأة عيد ميلاد وعيد ملاذ، وأعياد فضية وذهبية وماسية وجمعوا بين أعياد الدولة وأعياد الأفراد وإن كان مظهرها واحدا فهو الطعام والشراب والرقص فى الأماكن العامة والخاصة، وقد شهدنا من الفضائح والجرائم أيام السلم والطمأنينة فى هذه الأعياد ما تقشعر له الأبدان ويندى أوجه الفجار بالخجل، دع عنك الفضلاء والمتوسطين من الناس، فان هذه الحفلات السنوية والنصفية والشهرية والاعياد الموسمية والربيعية تتحول إلى اجتماعات للسكر والفجور . ولعله يهولك أن تعلم أن البلاد الشرقية الاسلامية قد وقعت فى حبائل التقليد وانقادت للقوى الخفية التى تدفع بها الى مهواة الهلاك السريع فابتكرت السيدات ولفيف من الأعازب والمحترفين ، الأعياد للجمعيات والحفلات للجماعات. وأخذوا يلتمسون أو هى الاسباب لها فهذه للأفراح وتلك للميلاد وهذه للختان ولانقضاء أسبوع على مجىء مولود سعيد الى العالم يحيى أبواه عيده بعد ذلك كل عام، وهذه جمعية خيرية أو اجتماعية تقيم الحفل لاعاشة الشيخ أو رعاية الطفل أو معونة الفقير. وفى كل من هذه يطعم الطعام وتشرب الخمر وتنصب أسواق الرقص على أنغام الموسيقى وتحصل المخاصرة بعد المعاقرة ويصحبها اللمس والهمس ويقام للدعارة صرح عال أسسته كهول وشبان وفتيات بريئات ونسوة محرومات وصائدات، فتنتهك الأعراض وتنفذ الأغراض وتداس الحقوق وتنشر المعصية والعقوق وتفسد حياة نساء لم تكن لتفسد لو لم تتشجع إحداهن بما تراه ممن هن أكبر منها سنا وأرفع مقاما فى نظر المجتمع ولكنهن أيضا عاليات الكعوب فى الفجور، حتى لمس الإباحة فى ظل الشعور المصبوغة واحتضن الشباب

نظم Robespierre عيدا دينيا لتمجيد ما وضعه Etre Suprême

من الرجال بعد أن ودعهن الشباب فى خريف الحياة . ولم يكن هذا الفعل كافيا بل وجب استغلاله وتخليده فى بعض الصحف والمجلات الداعرة التى تؤجر على ذلك وتجنى ثمرات فساد الحياة، فإن أصحاب هذه المطبوعات يبعثون إلى الدور والقصور بأفراد لاعمل لهم ولا رزق إلا تصوير هذه المفاسد فى أوضاع تستهوى من لم يشهدوها وتصورهم على حقيقتهم فى طعامهم وشرابهم ورقصهم وغنائهم، وقد سفر النساء جميعا أثناء الرقص أو الغزل وتحت كل صورة اسم صاحبتها وصفتها واسم زوجها، وهى عنوان كاف للدلالة عليها، وكذلك العذارى والفتيات وهم يقلدون فى ذلك بيوت الملك فى أوروبا وكبار السراة الذين لم يكن غيرهم تنشر صورته . أما الآن فأحقر رجل وأفقر مواطن لو لم يكونا موظفين أو تاجرين بل كان أحدهما مرابيا صغيرا وكان الآخر عاملا فإنهما لقاء جعل معين يحصلان على صورة تمثلهما وبناتهما وأخواتهما وأصدقائهم ، ولقاء جعل آخر تنشرها مجلة أو جريدة بألقاب وأسماء يصحبها التفخيم والتعظيم . وقد أبرزت كل واحدة دمامتها وضخامتها ولكنها واثقة من أنها تجد فى سوق الفساد شاريا أو هاويا . وقد جعلوا أماكن الفجور فى مسارح الصور المتحركة حيث تجتمع الطبقات فى كل ليلة فى مكان، فهذا المسرح أولى لياليه الاثنين والآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس وهكذا، وهذا تواطؤ بين أصحاب تلك الأماكن ليجمعوا بين جلب النظار بحجة الافتتاح، وهناك يجتمع الرجال بالنساء ويختلط الحابل بالنابل تحت ستار الظلام وفى فترات الاستراحة؛ ولهذه الأماكن شهرة سيئة فى كل الأقطار منذ نشأتها وقد زادت منذ بالغوا فى زينتها وجعلوها ملائمة لاجتماع الطبقات حتى أن الخاصرين والحاضرات لايشتغلون بما يشهدونه بقدر ما يشغلون بأقوالهم وأحوالهم وتواريخ اجتماعهم ومواعيدهم الخ .

وأن المرأة قد مثلت فى كل جيل وعصر منسى واستعبدت الرجال وأثرت فى حياتهم مؤثرات مختلفة الألوان والأنواع ، فقد أعدمت كليوبترا رجلين من رجال رومه وهما قيصر وأنطونيوس ، واستولت اسبازيا على حياة بركليس وأفكاره ، وكانت هيلانه سببا فى حرب طروادة وخراب وطنها وغيره من الأوطان، وكانت قيصرة روسيا المستهترة لعلاقتها بالقسيس راسبوتين سببا فى هدم عهد القيصرية، وقد قلدها النساء فى اتخاذ أخدان من الخدم والفلاحين والمجذوبين وأدعياء القداسة، وكانت فى فرنسا السابقة على الثورة نساء تمكنت كل منهن من الاستيلاء على قلب ملك أو وزير أو أى رجل من رجال الدولة حتى تصير إرادتها جزءا من دستور الدولة ، كما كانت حال المرأتين دوباري و بومبا دور ، وقد سرت هذه البدعة السيئة إلى حياة العصر الحديث ، ولئن كانت فى الماضى ستور تخفى وراءها حقائق الفجور ومظالم الملوك والأمراء فى الأزمنة السالفة . إلا أن تلك الستور قد أزيلت وأصبحت مظاهر الفوضى والفساد وتحكم المرأة فى الحياة واضحة العيان، وأصبحت موضعا للفخار والمباهاة والتحدث بنعمة الحظ والاطلاع على هذه المرأة أو تلك التى نالت القرب من الرجل ذى الشأن .

وقد تكون شرور المرأة مقصورة على الرجل الذى تلاحقه فتؤدى علاقتها به إلى إفلاسه أو مرضه أو سقوط همته وضياع مروءته أو فقد منصبه، وقد تجلب الشقاء على أولاد له أو زوجة سابقة، وهذه على كل حال تعد امرأة لا خطر لها على الدولة ولا الجمهرة مادام الشر الناجم عنها مقصورا على الرجل الذى يسلم إليها قياده فتكون دائرة فتكها محصورة ، أما المرأة التى عاثت فسادا وأشعلت النيران وهدمت بنيان الدولة وحطمت جدرانها بمعاول مطامعها وشهواتها فهى واحدة من النوع الذى ظهر فى العصر الحديث واستخصب مراعى الحكومات الآفنة المعطوبة وجعلت نفسها واحدة من جماعة أو عصابة منظمة أساس حياتها استغلال الدولة واستثمارها حتى القضاء عليها ، فاذا أدركتهن أوائل الأخطار أو علائم الزوال همن على رءوسهن هن وأصحابهن وصواحبهن ، وعند بداية الانحلال والتفكك تظهر مغامرات هذا النوع من النساء، وأكبر مثل لهن فى قصة عقد الملكة قبيل الثورة الفرنسية وقد كانت الدعارة والرشوة وعجز الرجال والسلب والظلم والاستعباد ، وقد كانت هى ومئات أخرى من الرذائل وعلائم الزوال، وإن هذه النكبات القومية التى تتوالى على الأمم بسبب الرغبات الجامحة عند فئة قليلة من سادتها ونساء يكون معظمهن مفقود العقل ومحروما من الوازع الخلقى والدينى تتجدد فى كل عصر ومصر عند مايبدأ دبيب الفناء إلى عناصرها ، وهذه القوى الشريرة تكمن وتظهر وتعتبر الحياة فريسة يجب اقتناصها وضحية لا يتردد الشرار فى القضاء عليها . ومثلها كمثل جراثيم الأدواء الفتاكة التى تبقى فى الجسم المصاب كامنة عشرات السنين حتى يحسب العليل والطبيب أن صاحب الجسم المصاب قد برئ من الداء فلا يلبث أن يشهد هجوم الجراثيم الكامنة هجوما فظيعا كأنها لم تكن إلا لتستجم وتتخذ عدة وتستمد قوة جديدة ، لأجل هذا لايقول إلا أبله بأن عصرا من العصور قد طهر ونظف وخلا من عناصر الشر، أو أن عصرا خير من عصر، أو أن دينا ما تمكن من القضاء على الرذائل بدون تدخل السلطان، أو أن هداية روحية هبطت على الدنيا فأنقتها من الأدران. فإنه ما دامت المرأة تلك المرأة وما دام المال هو الحكم الأعلى والشهوات والأهواء متمكنة من النفوس فالبقية تأتى تبعا بغير تأخير. وإن الطبيعة البشرية تبقى على حالتها مهما تغيرت حركة الحياة وكل الذى طرأ على الدنيا فى الستين سنة الأخيرة حلول الصناعة محل الزراعة وتحكم آلات الحديد والنار فى حياة الأمم وطروء السرعة الخاطفة على سير الزمان . ولكن أى دخل لهذا التغيير فى تبديل النفوس أو تحويل الأخلاق، ان لم يكن ميل إلى التنعم الزائد والتفنن فى ربح الأموال واتساع نطاق المطامع والاستهانة بالحياة، وصبغ المعيشة بصبغة التنقل الدائم والسفر الذى لا نهاية له ، وعجز الأمم عن إنتاج رجال ناضجين ونساء فضليات ، وعجز العقول عن إنتاج علوم وآداب نافعة بجانب الاختراعات الميكانيكية والآلية التى تعقد الحياة ولا تبسطها والتى تساعد على تكويم الثروات عند أفراد الرأسماليين والعمل على تقريب حوادث الحياة

وشخصيات الحياة من حوادث الصور المتحركة وشخصيات الصور المتحركة وجعل كل شيء على هيئة صورة مصغرة من الأخيلة والأوهام والتكالب على تمثيل أدوار ولو قصيرة جدا على مسارح الحياة، وهؤلاء جميعا رجالا ونساء ثمرات لعصر السرعة وجيل انتهاز الفرصة والذين يوصفون بأهل العاجلة حسا ومعنى .

ومن أظهر علامات الجيل المنحل المضطرب تدخل المرأة في الحياة العامة من وراء الستار . فان اهتمام المرأة بالشؤون العامة كان دائما أكذوبة و وسيلة للاتصال بالرجال وحيلة للانتقام من بعضهم أو من بعض النساء المتزاحمات على مصالح شخصية . فالمرأة بطبيعتها تنفر من الحياة العامة ولا تطمئن لها ولا تثق بنفسها في أحضانها إلا للشهوات سواء أكان في أمور الدين أم أمور الدنيا، وكل ما ظهرن به في هذا السبيل كان بدعة سيئة ومخزاة ومدرجة للفجور . والمرأة التي اشتغلت بالشؤون العامة جلبت الدمار دائما على من أطاع هواها أو صدق بها وإنها لا تتخذها إلا غطاء أو رداء لتخفي به غايتها فإذا وصلت إليها ضربت بالحياة العامة عرض الحائط . وهي مقلدة دائما لميول الرجل الذي تتصل به فإن كان بحارا أو نجارا أو عيارا أو زمارا أو طيارا اشتغلت بقلبها وذهنها بالملاحة أو النجارة أو الصيارة أو الزمر أو الطيران حتى إذا انتقل هواها الى زارع أو صانع أو حائك أو صائغ أو دهان أو عجان انتقلت هي الأخرى بقلبها وعقلها الى الزراعة والصناعة والحياكة والصياغة والدهانة والعجانة، فهي أبدا تابعة لا متبوعة وتابعة ما دامت متعلقة أو منتفعة، وفي المجتمع الناضج السليم لا ترى لها أثرا ولا تحس لها وجودا بل تبقى قابعة خاضعة ناضة في بيتها فاذا مال ميزان المجتمع وبدأ الفساد يدب فيه ظهر أثرها وحجلت في الفضاء وتحللت من كل القيود لتقود الجميع إلى الخراب، فإذا حدث بالمصادفة أن كان رجلها سياسيا اشتغلت بالسياسة [1] . وعند ما قامت المرأة العملاق بانكهرست بالدعاية لانتخاب النسوة في البرلمان كانت تفكر بعقل رجل لأنها فقدت أنوثتها وقد لاقت أهوالا هي ومن اتبع هواها، وكانت ذات قسوة وفظاعة، فقد تعدت على بعض الوزراء بضرب السياط على وجوههم في الأماكن العامة، وكان من برود دمائهم وهدوء أعصابهم أنهم لم يحتقوا على المرأة وأعانوها بعد بضع سنين على دخول مجلس النواب، ولكن هذه التجربة بل المحنة التي دامت عشرين عاما لم تسفر عن نتيجة سارة أو محزنة . وكل ما في أمرها أن بضع نساء ذوات مال ومنصب جلسن بين الرجال واتخذن هيئة خاصة بالقبعات أو ألوان الثياب أو اعوجاج الخصور أو خفض الجفون، ولم نسمع لإحداهن كلمة جامعة أو موعظة حسنة [2] أو رأيا حصيفا يخرج الأمة أو جماعة من الأمة من الظلمات

---

(١) برتراند رسل في كتب "طرائق الحرية" في الكلام على طبيعة المرأة .

(٢) تلاثون عاما في البرلمان تأليف (اللحمة) .

إلى النور، وكان الفرنسيون على طيشهم ورعونتهم وتسليم ذقونهم وأنوفهم ولحاهم الى النساء أكثر حرصا فلم يساعدوا على منح المرأة حق التصويت إلا فى المآتم ! ولا أعلم عن نساء انجليزيات أثرن فى السياسة بقدر ما فعل بعض الفرنسيات ولا سيما اللواتى كانت لهن علاقة برجال السياسة . وعند ما تناول هؤلاء النساء الفرنسيات أمور السياسة لم يكن عاملات فيها لأثر حسن أو نافع، ولكن لإشباع الشهوات الجامحة ودس الدسائس و إشعال نار الفتن وتحريك الأشباح من وراء الستار بخيوط المكايد، وكن يعملن لإدناء رجال من أحبابهن وأقاربهن و إبعاد أعدائهن وخصومهن؛ فيحرزن الوظائف الربيحة لعاشق أو حليف أو شقيق أو كاتم أسرار أو خليل متوار عن الأنظار، ويقصين عن المنافع عشيقا قديما بغيضا أو مطلقا عنيدا أو زوج مزاحمة معاكسة، و بالطبع دون اعتبار لصدق أو إخلاص أو منفعة عامة فيلقين بمال الدولة وشرفها وكفاية حكومتها ويدينها فى سهولة وابتسامة مرحة من الهوة السحيقة التى تتحدر اليها بغير حذر . كل هذا وهن فاقدات الأفئدة والضمائر مظلمات النفوس عاملات على إعدام النسل بتاتا إذ يرين الخلف والأمومة عارا للطبقة العالية وتشويها للجمال وحجة حية على بلوغهن الكبر إذا نما الخلف وترعرع ؛ ومن أمثالهن أن الثوب القصير للبنت يطيل شباب الأم الخ ، وقد اتخذت قاعات الضيافة أو "الصالون" مجامع ومسارح للفتن والدس والرشوة والفسوق وقضاء الأعمال بتأثير الخمور والقمار والغزل والإباحة، فتقول إحداهن إنها قادرة على إسقاط وزارة وتنصيب أخرى و إفلاس شركة وفتح بنك وهز دعائم المجتمع وابتلاع عهد ، دع عنك إنجاح كاتب وشاعر وانتخاب آخرين للأكاديمية الأدبية وهن يفعلن ، وقد سنت هذه السنة المرأة تاليان[1] أثناء الثورة؛ وتزوج بونابرت بالأنثى جوزفين، التى صارت أمبراطورة فرنسا، وابن أخيه نابليون الثالث بالأنثى أوجينى التى صارت هى الأخرى امبراطورة فرنسا من هذه الصالونات الإباحية .

وفى العهد الحديث عند بداية التدهور ظهر نساء بأسماء ماركيزات و بارونات ودوقات (وهى ألقاب مشتراة من وارثين مفلسين أو من بابوات رومة، و إحداهن بنت بدال (بقال) والأخرى كريمة صانع صناديق السمك لمخترن، وثالثة أبوها حمار، وتجد إحداهن تلتقط رجلا تراه صاعدا فى أفق المجد لمواهبه على فقره وسوء هندامه وقلة عنايته بشخصه كما هى عادة النوابغ فتؤويه وتحسن حاله وتعنى بمظهره وتزج به فى ساحة المجتمع فتكون له حاشية وأنصارا ومحبذين مأجورين ، فإذا صعد[2] استغلته واستثمرته وشجعته و بذلت له كل ما يحتاج اليه النابغ المحروم من التشجيع فينصرف تدريجا عن المنفعة العامة أو يجعلها

---

(١) Tallien انظر تاريخ بونابرت تأليف بوريين Bourienne .

(١) قضية مدام كايو فى مجموعة قضايا ١٩١٤ تأليف Ceo. London .

ترد مواردها عفوا ومصادفة وهو متجه بكليته لإرضاء مطالب المرأة التى أنقذته وكونته وإلى إرضاء الذين التفوا حوله فى الساعة الأولى ، وقد روى هذا وكتب فى صحف وقضايا ومذكرات عن اريستيدبريان وعن دلاديبه و بيركو وعن جمبتا نفسه الذى قتل قتلا غامضا بيد المرأة التى مثلت معه هذا الدور ، وعن فيلكس فور الذى مات بسكتة قلبية . وقد تكون المرأة منهن ذات جمال ومال وشباب ولكنها ترتمى على دميم خلق لا يميزه إلا ذكاؤه أو خبثه كالمرأة دومنيكا بوجتيوم صاحبة البرسارو أحد وزراء العهد الأخير، وحتى أندريه تارديو الذى زعموه من أقدر الكتاب والساسة وله كتب قيمة ومقالات وجيهة فى السياسة الخارجية وكانت له مطامع فى ديكتاتورية فرنسا كان واقعا تحت قبضة صريم ماركيه الممثلة فملأت قلبه بالمطامع وأوهمته أنه لا يقل عن بونابرت وقد يصبح حاكما بأمره فوصل الى رياسة الوزارة ثم هوى، وقد قامت بعد حرب السبعين وقبلها بقليل مدام جوليت آدم بأدوار كثيرة وحكمت فرنسا من قصرها مذ كانت حرما لمحافظ باريس فرفعت قوادا إلى مناصب الفرقاء، وأدخلت رجالا إلى ساحة الأكاديمى، وأقامت وزراء وجردت حملات للحرب فى المستعمرات، وكانت صديقة للملكات والأمراء، وكان من سوء حظها أن عمرت ورأت بعينها صروح مجدها ومجد فرنسا تنهار، وقد ماتت فى المائة من عمرها بعد أن نسيها كل من عرفها، وقد قال محرر جريدة الطان فى سنة ١٩١٠ "إن اسم طالب علم له أثر فى أذهاننا أقوى من أثر اسم مدام جولييت آدم" وقد ماتت فى فقر مدقع وحيدة فى قصرها بجيف من ضواحى باريس. ولكن هذه الكاتبة لم تكن من اللواتى استعملن الفساد فى الوصول الى الغايات لأن عهدها كان أقرب الى الحسنى، ولم تكن فرنسا قد هبطت الى الدرك الذى نزلت اليه فى الأربعين سنة الأخيرة .

وكانت سياسة الصحف والشؤون الخارجية تدار فى منازل كونتيس مارتا وسوزان شربير وكونتس داركور ومونتجومرى؛ ومنهن نساء مستأسدات يلجأن الى القوة و يطلقن النار على من يدفعهن أو يعصاهن، كما هى قصة المرأة كايو زوجة الوزير التى صرعت جاستون كالميت مدير جريدة الفيجارو [1] والمرأة ستنهايل التى جهرت وفخرت بعلاقتها بفيلكس فور ولطخت يديها بدماء زوجها وخرجت من محكمة الجنايات "رافعة الرأس موفورة الكرامة"...!! والمرأة ماجدا فونتانج التى أطلقت النار على شارل دى شامبرون وزير فرنسا المفوض وسفيرها فى رون. ومنهن هيلين دى بورتس التى فاقت بفتنتها هيلين دى تروا فقد أعانت ابن عمها على تأسيس حزب صليب الحديد [2] ولعبت بقلوب الوزراء وعقولهن عند ما حان حين فرنسا

---

(١) فى يونيه سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العامة الأولى بقليل .

(٢) قضية (Cagoulard) الشهيرة سنة ١٩٣٧

سنة ١٩٣٩ ثم لحقت ببول رينو فحاكت خيوطها حوله ، وكان الرجل كهلا والمرأة فتية لا يزيد عمرها عن نصف عمره . وكان رجل جد ووقار وهمة وقد يبدو على خلقه بعض الجفاء والجفاف ولا سيما انه بدأ يخطو الخطوات الأولى فى العقد السادس ولكن المرأة الفاتنة لا تعوزها الحيلة إذا أرادت أن تلقى شباكها على رجل ، ولم يكن بول رينو أول رجل ذى شهرة واسعة ولباقة وحصافة ومطامع واستقلال فى الرأى وقوة فى العزيمة والإرادة ، يدركه تأثير المرأة فى إبان عظمته الفكرية وتشييد مستقبله الضخم فى خياله فعصف بكل هذه الآمال والمواهب كما تعصف ريح السموم بقوافل الصحراء ، أو بالجنان الخضراء فتشتتها وتذروها أو تتركها خرابا يبابا فإن قوة المرأة الشريرة كقوة عناصر الطبيعة . فالبركان الهائج والعاصفة الجامحة والنهر الذى يطغى فيضانه إن لم تفقها قوة الشر فى المرأة فهى لا تقل عنها حتما . وأنها لأداة من أدوات الأقضية والأقدار ، ولذا أطلق الفرنسيون على هذه المرأة اسم Femme Fatale أى مرأة القدر ، وهو اسم لا يطلق على صواحب الخير مطلقا بل أبدا ودائما على صواحب الشر والأذى ، ولأجل المقارنة العارضة بين هذا النوع و بين النساء اللواتى ورد ذكرهن فى التواريخ القديمة ، فما على القارئ إلا أن يتذكر اسم إسبازيا تلك المقنعة التى شغفت حبا بپركليس وأعجبت به لفصاحته ونبالته [1] و بطولته فاستهوته ولكنها خدمت عبقريته وتعمدت أن تكون نافعة له فكان عصره من أحفل العصور وأجداها على وطنه بمساعدة هذه المرأة التى كانت فى أول أمرها مجهولة ؛ أما فى هذا العصر الحديث فكل أفراد هذا النوع من النساء منصرف الى الشر المحض و إن المرأة لا تدنو من الرجل العظيم إلا لتفسد حياته بعد أن تستغله لمصلحتها ومصلحة ذويها وتتخذ منه أداة لأغراضها ، وهكذا فعلت المرأة هيلين دى بورتس التى وصفها الفرنسيون باسم " جالبة الخراب " فقد تصنعت البساطة والسذاجة و جمعت قدرتها وقضت أوقاتها فى توحيد رينو وعزلته و إفراده فعملت على إقصاء أصدقائه المخلصين بالمكايد والفتن والوقيعة والوشاية والنميمة وأوهمته بأنهم وهم الذين كانوا بالأمس أنصاره ومعاونيه قد صاروا ألد أعدائه ، وأحلت محلهم من شاءت من الخونة " واللصوص الشرفاء " وقد هيأتهم من قبل ، وأعدت لهم نفسية العبقرى الساذج الذى قد يكون عقله كعقول الأطفال فيما عدا ما جهزته به الطبيعة من حذق فى السياسة أو مهارة فى الحياة العابسة ، فلما أطبقت الحوادث على فرنسا وكانت آمالها محصورة فيه كان رينو قد صار " بقية رجل " وشبحا من الماضى .

ولم تكتف المرأة الفاتنة والغانية الساحرة بهذا الخبال الذى أورثته إياه بل ما زالت تعمل على تحطيم روحه و إضعاف ارادته وتخذيل همته للقضاء على البقية الباقية من شخصيته ، وقد وافتها منيتها عند ماوافت رينو سقطته فقد اصطدمت سيارته التى يقودها و إلى جانبه تلك "الأفعى

---

(١) Pericles et Aspasie فى تاريخ بلوطارخوس ونشأة الديموقراطية .

المطيبة " كأن أجلها كان مربوطا بمعركة فرنسا فلفظت تلك المرأة أنفاسها الأخيرة قبيل التسليم التاريخي بوقت قصير . وقد شاع وذاع في ذلك الوقت أن رئيسو قتل وراح ضحية الحادثة وتداركوه في الرمق الأخير فانقذوه مهشما محطما فانهضوه وعصبوا رأسه وكانت هذه الواقعة ختام علاقته بها. هل كانت حادثة عارضة أم كانت رغبة غامضة أدركت الرجل عند الضيق فأراد الموت لنفسه وهنا وقد تيقظ يقظة الضمير الأخيرة ورأى في طرفة عين كل ما جنته هذه المرأة عليه وعلى شعبه. وسيبقى هذا الأمر سرا مكتوما ان كانت جناية قتل فقد استحقتها المرأة، وقطع الرقبة تحت عجلات السيارة كقطع الرقبة بيد السياف، أو على نطع الجلاد ، أو تحت مدية المقصلة .

* * *

هذه صورة من صور العصر الحديث وصفناها بايجاز لنعطي فكرة عن العصر الذي نحاول وصفه ويعجزنا تراكم الحوادث وتسابقها كأنها شريط تصاوير متحركة اردحمت بها رأس المؤلف والمخرج والمصور قبل أن تزدحم بها رءوس النظارة . وهذا طرف وجيز من حياة المرأة في الاجتماع الحديث الذي تشعبت طرائقه وتعددت نواحيه . ولون من مسالك المرأة التي كانت مفترضة أن تكون للخير المحض ولسعادة المجتمع وكأن حلقة الاتصال بين الماضي والحاضر مصنوعة من الفولاذ لا يعتورها لين ولا يدركها انثناء وقد كان في التشريع الاسلامي الخاص بالمرأة خير ضمان لها وللرجل وللأسرة الاسلامية، فعلى المرأة المسلمة ولا سيما المصرية ترعوي وتعتدل لتنجو من الأخطار وتنجو معها الأمة .

محمد لطفي جمعه